٢) مرحلة الكاتب والمناضل الثوري

أ) بيروت : اجتماعية ، سياسية ، ثقافية

أ ١) عائد الى حيفا

الاعمى والاطرش

لاحظنا ان التطور الايديولوجي والسياسي لغسان كنفاني قد رافق التطور التاريخي والاجتماعي للقضية الفلسطينية ، وبالتالي كان تطور الموضوعات الرئيسية في اعماله الادبية . وفي هذه المرحلة التي تحددت فيها المعطيات التاريخية للثورة ، تأتي موضوعة **المناضل الثوري** ، كتعبير حي وموضوعي للواقع التاريخي الحاضر . وتتعدد جوانبها ، ليأخذ كل جانب قسما من انتاج هذه المرحلة . تتمم ببعضها البعض ، بحيث ترتقي في ثلاث درجات ، صعودا نحو مفهوم اجتماعي عميق للثورة .

واكثر ما يتناسب مع القسم الاول من الانتاج روايتا « عائد الى حيفا » (١٩٦٩) و« الاعمى والاطرش » (١٩٧٢) رغم صدورهما في تاريخين متباعدين .

في الرواية الاولى يذهب البطل بعد هزيمة ١٩٦٧ بصحبة زوجه الى حيفا بحثا عن ولده الذي تركه رغما عنه صغيرا في المهد وهاجر سنة ١٩٤٨ . عندما يصل بيته يجد فيه عجوزا يهودية أشرفت على تربية الطفل ، فنشأ وترعرع في كنفها ، ولم يقبل دونها أما ، ولا دون زوجها أبا ، وصار جنديا في الجيش الاسرائيلي .

الصورة الفنية هنا ، **أبواب مدينة حيفا المفتوحة للمهزومين** ، والبطل في طريقه اليها، كان يتحدث طول الوقت لزوجه عن بيته وابنه والبحر ، كان يتحدث عن الماضي الذي فتحت الهزيمة ابوابه على المصراعين ، والذي يجد نفســـه مجبرا ـــ رغم ارادته او بارادته ـــ على الدخول فيه . لكن العودة الى الماضي بشكل حقيقي وملموس ، وليس عن طريق الحلم ، تنكشف دونه الحقيقة ، فيكف الماضي عن الحياة : « كنت أتساءل فقط . أفتش عن فلسطين الحقيقية . فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة ، أكثر من ريشة طاووس ، اكثر من ولد . . »(٦٧).

بل تصبح معايشة الماضي عاملا ثوريا ، اذ يتمنى الاب أن يكون ولده الثاني قد انخرط في حركة المقاومة ، وأصبح فدائيا .

ان دافع **الانخراط في الثورة** هو جانب من جوانب موضوعة المناضل الثوري ، وهو تأكيد على عدم تكرار خطأ ١٩٤٨ ، وان الفرق بين هزيمة ١٩٤٨ وهزيمة ١٩٦٧ ان الماضي ينتهي بلا رجعة وان الحاضر مفعم بالامل ، والهزيمة هزيمة للهزيمة ، فلا رحيل جديد ، ولا شتات آخر ، بل تنظيم واستعداد .

وفي الوقت الذي يحصل فيه الطلاق الابدي بين الفلسطيني والماضي/الوهم الذي تنتجه النكبة الاولى ، يجتاز الفلسطيني ايضا بؤس المخيم واغترابه المتمثل في «العمى» و« الطرش » . هذا العهد الذي يمتد بين النكبتين ، يصبح في عداد الماضي الميت أيضا في رواية « الاعمى والاطرش » : ابنا المخيم اللذان كانا يطمعان في الشفاء على يدي أحد الاولياء الدجالين ، فيكتشفان ذلك عند لحظـــة الشعور بالوعي ، وان كـــل ما هو ميتافيزيقي وغيبي لا صلة له مع الواقع ، والخيار الوحيد هو الثورة .

لهذا نرى ان **صورة الليل والصمت** اللذين يرمزان الى العمى والطرش ، تحـــوي ضمنيا النهار والصراخ اللذين يعنيان الحياة الجديدة **والغضب الثوري الباعث لهذه الحياة** ، حيث يكمن الدافع المسيطر في هذه الرواية .